صباح مناسب للقتل

قصص

أسامة جاد

دار العين للنشر

صباحٌ مناسبٌ للقتل

صباحٌ مناسبٌ للقتل

أسامة جاد

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: غادة خليفة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٦٣٧/ ٢٠١٣
I.S.B.N 978-977-490-263-5

صباحٌ مناسبٌ للقتل

قصص

أسامة جاد

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

جاد، أسامة

صباح مناسب للقتل: قصص/ أسامة جاد.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٦٣ ٥

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٤٦٣٧ / ٢٠١٣

إهداء

إلى أمي؛ أول من أهداني قصة. كانت "الفرسان الثلاثة" لألكسندر دوما الابن

إلى أبي: الذي أحرقت مكتبته، وسطوت على ما نجا من الحريق، ثُمّ صادرته

إلى جدتي: أول من علمني شغف الحكي

إلى ألف ليلة وليلة، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، ويحيى الطاهر عبد الله، ومحمد مستجاب، ومحمد حافظ رجب

إلى عبد الرحمن منيف والطاهر وطار، والطيب صالح

إلى موديلياني ويوكيو ميشيما ومكسيم جوركي وإسماعيل كادرايه

إلى فيروز تغني: مصرُ عادت شمسكِ الذهبُ

المحتويات

قال "مو".. وأشار بيده

دموع طارئة

أبكاها العجز، وهي ترى الدجاجةَ تروحُ منها،

وكانت السكينُ سريعَةً.

وعلى الغداء، كانت تبكي آخرَ ما يربطها بالدنيا

وتأكل ببطءٍ... شديد.

يتركن أسماءهن على باب البيت

غَمَرَهَا صَوتُ سعاد مكاوي، وهي تهدل: لما رمتنا العين شوف انت فين، وغنت معها: "وانا فين". حَرصَت على مدّ الألف ووصلِ الهمزة، كما تؤديها سعاد تمامًا.

لما بلغت "واتفرقوا القلبين" ترحّمت في سرّها عَلى أبو مِينا.

كانَ يُفَضِّل "يا ابو الطاقية الشبيكة"، لحورية حسن. يَسمَعُهَا وهو يَضعُ الطاقيّة التي أهداهُ إيّاها الحَاج محمود ضِمن هَدايا الحجّ.

أبو مينا رسم يومها الكَعبَة وسفينةً وطائرة، وكتبَ على واجهة البيت "يا داخل الدار صلي على النبي المختار"، والحاج محمود جاب له طاقية

ومسبحة وقال له: عُقبال قُدسك.

وضحك يومَهَا، وقال له: "مش كنت أسلمت ورحت معايا، تونِّسني".

وقال أبو مينا: "موسى نبي وعيسى نبي".

واللي شافونا

ليه يحسدونا

ترحَّمت على الحاج محمود.

فَتَحَت بابَ الشَّقةِ القديمة، وطرقت البابَ المقابلَ وهي تنادي: "يا أم خديجة".

لما لم يرد أحد أخرجت مفاتيح من صدرها، ووضعت أحدها (علَّمته بعلامة) في الباب: "نومك تقل يا ام خديجة.. لازم تشوفي دكتور".

كانت صورةُ الحاج محمود معلقةً في الصالة، أكثرَ شبابًا. التقطها قبل الحج، لما نفَّذَ النقل واستأجر منهم الشقة. تذكره أم مينا، كان يتظلّم من النقل، لكنه بعد سنتين ألغى التظلُّم، لما خديجة تزوجت ابن عمها وسافرا للكويت.

قال: البلد ليست بعيدة، وفضل البقاء في المدينة. قال لأم خديجة: قريبين من الدنيا.

راحوا، أربعتهم، للسينما، معًا، وشافوا عبد الحليم في "أبي فوق الشجرة". السينما جنب المحافظة، والحاج محمود كان يعمل في المحافظة. "الله يرحمه"،

قالت، وفتحت الغرفة الداخلية: "أم خديجة.... أم أخديجة".

هبّت الأخيرة من نومها، مبهوتة: "حاضر.. حاضر.. قمت خلاص".

طَلَبت من أم مينا أن تصرف المعاش عنها، أعطتها "الختم" والبطاقة، وحلفت لها مرتين انها قدمت الطلب، وأن الموظف يعرف.

أوصتها أن تغسل الصحون التي نسيتها ونامت، وقالت لها أم خديجة تشتري ملوخية معها "وهي راجعة".

لم تسألها عن خديجة وهي ذاهبة، نسيت، كانت قلقة من أن يرفض الموظف أن يصرف لها كما فعل في الشهر الماضي: طلب بطاقتها، وقال: أنت مسيحية وهي مسلمة؛ لا بد من التوكيل.

"طيب، مش مشكلة، ان شاء الله، لكن لا يقول لي: مِش أختك".

"قلت له: أختي، وظل يردد: انت مسيحية وهي مسلمة

عيسى نبي.. وموسى نبي، قلتُ".

استعادت كل ما قالته يومها، وما رددته أكثر من مرة، باستغراب: قلت له "أختي، جيران 40 سنة"، وظلّ يكرر: "مسيحية ومسلمة".

حَرِصَت على ملمح جاد وهي تقتربُ من الشُّبَّاك، كانت تستجمع شَجَاعَتَهَا لمعركة متوقَّعَة، غيرَ أن ابتسامة الموظف أراحتها قليلًا، قال مداعبًا: "يا ستِّي دي أصول؛ اللي يستخدم ختمها لازم يكون قريبها أو موكّلًا عنها"، قالت: "أختي"، فاتّسعت ابتسامتُهُ، فتابعت بإصرار: "أختي المسلمة".

اشترت حزمة ملوخية في طريق العودة، واستخدمت المفتاحَ مرة ثانية وهي تكرر: "لازم تشوفي دكتور يا أم خديجة".

كانت الأخيرةُ في المطبخ تُنهي غسيلَ الصحون. لما وضعت يدها على كتفها فزعت، فصرخت: "لازم تشوفي دكتور". صرخت الثانية: "إن شاء الله".

بعدَ الغداء ماتت أم خديجة.

في المساء أَنهت أم مينا إجراءات تكفينها، واتفقت مع الشيخ، قبل أن تصل خديجة وزوجها. قالت لها، بعد العزاءِ:"معاش أمك معي". قالت خديجة: "صرفتِ كتير يا أم مينا".

في الصباح، كانت تسألُ الكاهن: "هل أضعُ المعاش في المسجد أم في الكنيسة كي يصلَ إلى روحها، أسرع؟".

ذراعٌ خَفِيَّة

عندَمَا بَحَثَت كفُّها عن ذِراعِهِ ليعبرا معًا بين السياراتِ، كانت تحملُ سنواتِها فوقَ رأسِها، كالعادةِ.

لكنها اجتازَت الصراط، وحدَها.

وكان تمثالٌ، لامرأةٍ تبكي زوجَها، ينبتُ في نهرِ الطريق.

تحدِّثُ الغائبين.. وتقسم حبوبَ الضغط

أعطاها البوابُ فاتورةَ الكهرُباء، وهي تحييه في الصباحِ، وقالَ: مائةُ جنيه، قالت: أصرفُ المعاشَ اليومَ. أوقفَ التاكسي لها، وقالت: التأمينات، وبدأت تعُدُّ على أصابعِها. كان المرحومُ يَضحَكُ دائمًا: طول عمرك ضعيفةٌ في الحسابِ. الإيجارَ، والهاتف، فالغائبان قد يَعودان، وقد يتصِّلُ أيُّهُما، فماذا يفعل لو وجد الخطَّ مقطوعًا، وقد يظُنُّها ماتت. ابنها الذي لم يرسل منذُ 21 عامًا، قبلَ أن تنتقِلَ مع المرحومِ إلى مساكِنِ الزلزالِ، عندَما سقطَ البيت.

يَومَها رَكَّبُوا الهاتفَ، وكانت والمرحومُ ينتظرانِ رنينه بالليالي، وهما يتذَكَّرانِ خطوَتَهُ الأولى، ويومَ هزَّ رأسَهُ في عنادِهِ الأوَّل.

عنيدٌ من يومه، قالَ: أُجرّبُ حظي في الغُربة، وأنا وأبوه قلنا: لأ، لكنَّهُ من يومهِ عنيدٌ، غيرَ أخيه الأصغرِ، الذي قال: بلَدي أولى بي، وقالَ سأتي في العيدِ، ولم يفعل، ودُختُ أنا وأبوه في المُستشفياتِ والأقسامِ، ولم أعرف أميتٌ أم حيّ.

الإيجارَ والهاتِفَ، أهم شيئينِ، وبعدها أي شيءٍ.

"كَيفَ حالُك يا حاجّةُ، لا أخبارَ عن وَلَدَيك؟"، بادَرَها الصرافُ، كانوا في التأمينات يَعرفونها منذُ كانت تسندُ المَرحومَ ليصرفَ معاشَه، ولمَّا رأوها تأتي وَحدَها، منذُ عامٍ، عرفوا وَحدَهم. لم يَسألوا، وقدَّموا واجِبَ العزّاءِ.

أعادَت عدَّ النقودِ للمرةِ الثالثةِ، وجَلَست بِجوارِ الهاتِفِ، وهي تحسِبُ بأصابِعِها

قالت: "ليست مُشكلةٌ يا حاجُّ"، وابتسمت، "سأَقسِمُ حبَّةَ الضَّغطِ إلى نصفين".

مسَحَت غبارا كاذِبًا، عن صورةِ المرحومِ، وأسندَت ظَهرها إلى الكرسي، ونامت.

رَأَينا أَرضَ ميلادِنا

طرَحَت السماءُ عصافيرَها في أفواج، بحسبِ الاستيقاظ، فاليومُ أوّلُ العودة إلى أرضِ ولادتنا. كُنّا نعرفُ الموعدَ، منذ ما يكفي لنَستَعِدَّ، ولكنّها حكاياتُ السفرِ، لا تَزورُ فراشَنا سوى في ليلةِ الرحيل. تنافسَ الكبارُ في تَذَكُّرِ الأماكنِ، والصغارُ في السؤالِ عن عفاريت "ألفَ ليلة"، وهل يمكنُ أن يَعثروا على مصباحِ الجنّي، أو يوقّعُ السندبادُ لهم بعضَ التذكاراتِ، لو أحبُّوا؟ ونمنا مع بياضَ الفجر.

ولمّا نهَضنا، ونحنُ ننفضُ ما تبقى من النعاسِ، كان الكبارُ يتناولون حبوبَ صباحهم المتأخّرِ، ويراجعونَ خرائطَ الرحلةَ كقادة يضبطونَ معركةً، (لم نعرف المعاركَ بالمناسبةِ، رأيناها على الشاشةِ، وَلعبناها في الصّالةِ الرَّقَميّةِ).

ونساءُ العائلةِ كن يوقظنَ النائمين، ويُحَمِّمنَ الصاحينَ، ويُفْطِرنَ المُغتسلين، وينظِّفنَ المائدةَ، ويراجِعنَ الحقائبَ، واحتاجَ بعضُنا لأكثرَ من حمام.

خصصوا كشّافَين لكلِ عائلة، واحدًا لخرائط الطريقِ، وواحدًا يتقدَّمُ، يستَكشفُ مخابئَ الصيَّادينَ؛ فكثيرونَ لا ينتبهونَ سوى في اللحظة التي تصرخُ الحوصلاتِ فيها بحنينِ الأرضِ وبكاءِ الأعشاشِ الخَرِبة، ودموعِ الماء.

لما أفلَتَ آباءُ الرِّحلةِ أجنحَتنا في البياضِ لأولِ مرةٍ ساختت أرواحُنا فوق الغيوم، وارتَخَت بطوننا في ذُعرٍ رماديٍّ وبارد. وعندَما تهاوَينا لم نجد أيدٍ لتمسكنا، كما في دروس الطيران الأولى، وتخبطت أجنحتنا قبل أن تخفقَ في هدوء رويدا، ثم انطلقنا كشهب صغيرة.

عندما عاد الكشاف بالبشارة، تبادَلنا التّهاني وفَرِحنا، وذَكَّرنا شهداءَ الرحلة وبَكَينا، وزدنا رفرفاتنا كي نلمس الهواء. كان سباقًا أخيرًا، وحلوًا، على الأعتابِ.

كانت عيونُ الصيادين ترقب من خلف المناظير الليلية، والأصابع كانت تضغَطُ أكثر من زناد.

ولكننا رأينا أرض ميلادنا على مرمى جناح.

قالَ: "مُو".. وأَشَارَ بِيَدِه

أطبقَ شَفتَيهِ وهوَ يُصدِرُ أولَ صوتٍ، فابتدأ بـ"م"، وكان يريدُ أن يفتَحهما نحو حرفِ الألفِ، غير أنه عنّ له ضمهما، في اللحظةِ الأخيرةِ، نحو الواو الصريحةِ، فردت الأنثى: "مُو؟"، وفتحت عينيها باتساعٍ.

أشارَ للـ"مو" الذي يعبر الإضاءة الفضية، في غموضِ السلويت، وقال: "مو، موو".. فقالت: "مو"، وهزت رأسها، وكانا يطلانِ في دهشةٍ من كوةِ الكهفِ، التي بدت كشاشةٍ تَعرِضُ صورَةَ الـ"مو"، وهو يعبرُ في الإضاءةِ النهارِيَةِ، او في التفاتِ القمرِ.

عندَما عضَّهُ "مُو" ذاتَ صيدٍ، ارتفَعت حرارتُهُ كثيرًا، وكان يهذي

لليلتين بهمهماتٍ لم تفهمها، وقامَ في اليوم الثالثِ وحفرَ على جدارِ الكهفِ دائرةً كبيرة تخرجُ من بطنِها أربَعةُ خطوطٍ نحو الأسفل، تلاصقها دائرةٌ صغيرَةٌ، لها أنياب.

رسمَ "مو" داجنًا بَعدَها، و لم يضَع أسنانًا له، وبعضَ الـ"مو" غَيَّرَ تكويناته. ولكنّهُ حينَ أنجَبَ "مو" صغيرًا، كانَ يَعرِفُ، عندما دعاه لرحلةِ صيد معا ذاتَ صباحٍ، كيفَ يحكي له عن الـ"مو"، وتركا الأنثى في انتظارِهما، في الكهف.

عندما عادا، في الليلِ، يحملانِ "مو" ذبيحا، راحَ الصبي إلى أمِّه، وكان يرتَعِدُ، وهو يرددُ: "عُو.. عُو"، والأبُ يصحح له، ويردد: "مو.. مو".

هدّأت الأم صغيرَها حتى ينامَ، ولكنه لما قامَ في الصباح راحَ إلى رسم الـ"مو" الأول، الـ"مو" ذي الأنيابِ، ووضعَ علامَةً، وهو يتذكّرُ كيفَ احتبسَ صوتُهُ بالأمسِ، كيفَ ترجّع في حلقِهِ، وجاءت الـ "ع" صريحةً وهو يصرُخ: عُوو.

التفتَ لأمِّهِ، وهز رأسه في إصرارٍ، وقالَ: "عو"، فقالت: "عَو".

وصارت، من يومِها، تحذر زوجها من الـ"مُو"، وتحذر ابنها، سرا، من الـ"عَو".

سوف يحكي لأبنائه، ذات يوم، عن الـ"عو" الذي شاهَدَ زُرقةَ أنيابِهِ، يوم أن خرجَ لِصيدِ الـ"مَو" مع جدهم ذات مساء.

المرأةُ التي تكرَهُ الشّرفات

لم تدلف إلى شرفةٍ، منذ خمسة وثلاثين عامًا، فهي تكره الشرفاتِ.

تغطيها بالستائر الثقيلة، لعلها تنسى أن شرفة هناك.

ألجأتها الأمطار التي ظلت تهدر فوق سقف السعف والطين، في بيت الطوب الأخضر (النيء)، إلى الشرفة؛ نشلَت صغيرها من على السَّرير النحاس ذي المرتبةِ القطن التي أشرفَت على تنجيدها بنفسها، وهربت إلى هناك، قالت: السقف لن يحتمل.

عندما حدثتها زوجةُ ابنها، التي تجعد شعرها، وترتدي ثيابا عمليةً، عن فوبيا النور أضاءت كل مصابيح الغرفةَ، وأكملت بكاءها وهي تغسلُ

الصحونَ، وتركوا الستائرَ مغلقةً.

والغسيلُ كانَ قصةً أخرى، تضع الثيابِ المجففَة جيدًا، على الوسائد والمقاعد وحواف الطاولاتِ، أو تجد من يقبل الخروج لنشرها، ولجمعها فيما بعد.

كانَ الصغيرُ هادئًا برَغم البرودَةِ وصوتِ المياه البعيدَةِ وهي تجرِفُ بيتًا إثرَ آخرَ، وتقترِبُ، وحباتِ المطر الثقيلة على السقفِ، وكانت تتشبثُ بالحافَّةِ بذراعِها الحرَّةَ، وفكَّرت: خشبٌ، وقد تنفَعُ للعومِ.

لما عادَ ابنُها من غيابٍ طويلٍ، ألهت نفسَها عن الستائرِ المفتوحةِ بالنظرِ إلى عينيهِ، وهي تبوسه بشغفٍ، وتشمُّ رائحتَهُ، تبحث عن خبراتِ نالها، ونساءٍ عبرنَ، بَعدَها.

أعدَّت حمَّامَه بفرحٍ، وأغلَقَتِ الستائرَ.. كي لا يبرَد.

الماءُ يجرفُ كلَّ شيءٍ، ويَهدِر، وهي تحدِّثُ الصغيرَ: سننجو، لا تخف، وعلى وجنتيها دمعٌ وماءٌ، والصغيرُ لم يكن يبكي.

عندَما تأخَّر ابناها، ونزلَ الجيشُ للمدينة، وانقطعت شبكاتُ الاتصالِ، شدَّت روحَها بالكادِ، وهي تفتَحُ بابا خشبيًا، وتُطلُّ برأسها أولا، بذراعيها، وكتفيها، وتخطو إلى الشرفةِ، حيث كوَّرت نفسها، على أرضيَّتِها، في انتظارِهما.

بالأمس، حملت حفيدتها، هناكَ، تحتَ الشمسِ، وكانت الصغيرةُ تحملُ في يدها علمًا صغيرًا، وتضحك.

بلل

سَكَبَ الماءَ عَلَى جِسمِهَا.. ثُمَّ نَام.
فَأَخَذَت تُصفِّفُ شعرَهَا المبلولَ.. وَتبكِي.

تشبهين صباح

لم يكُن شيء مختلفًا بكِ، لكنه شيءٌ بكِ، كأنّهُ اليُتمُ"، جَعلَني أشهقُ في داخلي عندما رأيتكِ. عيناكِ الذابلتان، ربّما، وسعلاتُكِ الصغيرةُ الخجولةُ مثلُ كمان أنهَكهُ العازِفُ في ألحانٍ عَصيّةٍ.

لماذا تصر السيارات على الزعيق الحاد رغم البرْد وخلو الطريق؟. "بيني وبينكو العربيات. وانا ياللي في عنيكو بيات".

أحمدُ، صديقيَ الّذي ظَلّ مَعِيَ، سنواتٍ طويلةً، لعبنَا معًا، ودَرَسنا

مَعًا، وَخرجْنا "في سبيلِ اللهِ"، معًا، وأصبَحَ رسّاما، وأصبحتُ أنا.

أحمدُ، الّذي ذهَبْتُ إليهِ، في جامعَته، وداهَمتنا شرطةُ تفريقِ المظاهرات، وبكيتُ كثيرًا، أنا وَهْوَ،من الغازِ المُسَيّلِ للدموعِ. أحمدُ، الّذي التقيتُه مؤخرًا، وقال إني كافرٌ، رُبّما لأنّهُ رفضَ مَنحيَ القَرضَ إياه، أخبرني، في صباحٍ شتائيّ، أنه رأى صباحَ في الحلمِ، وأنّهُ فَعَلَ مَعَهَا.

صباحُ..! "دي ملاك". زي مريم فخر الدين أو زبيدة ثروت.

لم أحبُهُ. سخيفٌ، هُو وحُلمُهُ.

كيفَ لصغيرٍ لَم يبلُغ الرابعةَ أن يعرِفَ كَم تَشعر المرأةُ في وِحدَتِها بالبردِ؟. الوحدةُ مشهدٌ يستقطبُ الروحَ دائمًا، والقيتارَةُ عذبَةٌ وحزينةٌ. يَسطَعُ جُرحُها في الرُوحِ ناصِعًا جدًا، ويُوجِعُ. والليالي الباردةُ لاتسكنُ وحدتها، ولا البكاءُ، وهي تدفن رأسها في الوسادة. لاكتفَ هناكَ لتَبكِي عَليها. والروحُ فراغٌ وَصَحراءٌ. والريحُ تَعوِي في الخرائبِ المهجورةِ.

وحدَها أناملِي تعرفُ. والـ"دو" تعرف وهي تميسُ في بهجةٍ معَ الـ"مِي" وتَشتَهي الـ"صول" وصلَهَا. وأنتِ تعرفينَ. والشجرةُ التي رَأَتْنَا تعرِفُ. والجدارِ المهدم. والّليلُ الذي اشتدَّت برودَتُهُ، فجأةً، فاشتهت أجسادُنَا مساحاتِ من الدفءِ، نغيب معها في ضِحكَةٍ، قَد نلمسُ السماءَ، لحظَتَها، ونعود؛ دافئين تمامًا، ومشتعلين.

عند "منصورِ الحلواني"، كانَ أحمدُ، وهو أحمدُ غيرُ أحمدَ صاحبي، يحدّثُني في سعادة، رُبّما. كانَ يحرّكُ ذراعيه، في حماسٍ حقيقي. وكانت صباحُ في البعيدِ، واقفةً كريشة عصفت بها الريح. وكان رَجلانِ يفاوضانِها، لهُما مَعًا.

أنتِ امرأةٌ شتائيّةٌ، وروحي صقيعٌ.

تضَعينَ رأسَكِ إلى كتفي، في غابةٍ من التّعَبْ. وصباحُ تغزو أحلامي كثيرًا، أشتهيها كثيرًا كما كانت. عندما كنت طفلا.

لم تعد تستدعي الشمس إلى جلستها كل صباح

فضاء سردي

كَرمُ العَزَايزَة

رمى صرخةً بينَ النخيلِ الأشعثِ، وعادَت لهُ، ثم رمى صرخةً، وابتلعَها الظلامُ، فغابَ في دفءٍ خفيفٍ.

احتفلوا ببطولتِهِ في الصباحِ، بينما كانت الرّعدةُ تهمسُ، وهي توشكُ أن تجفَّ، في ملابِسِهِ الخائفةِ.

صَباحٌ مُناسبٌ للقَتل

الشمسُ فاجأَها استيقاظُنا، يومَها، وألقى أولُ رمضانَ تحيتَهُ الصباحيّةَ، ولم نكن نمنا، ونحن "ننصب الطوباتِ" لتحديدِ مكانِ حارسِ المرمى.

كنا خمسةً فقط، فبعضُنا سافروا مع العائلة، وبَعضُنا مع العائلةِ ولم يسافروا ولكننا ما عدنا نراهم، منذ أن وصلَ إلى البلد رَجُلٌ ذو نَظرَةٍ باردَةٍ، وصوتٍ ناعمٍ، ولا يضحكُ. وأغلقَ الناسُ بيوتهم في النهارِ.

"جون مشترك"، والحارس لا يستمر كثيرًا، نعرِفُ أننا سترتمي من عطشٍ مستحيلٍ عندَ بلوغ الظهيرةِ، سيفكرُ بَعضُنا في الاستسلامِ، وبعضنا سيظلُّ يقاوِمُ، ويتسلّى بالنومِ والماءِ والحكاياتِ واللا شيءَ.

ولكننا لم نغير أبدًا مواعيدَ اللعبةِ؛ بعد الفجر بساعتينِ، في أولِ الصيامِ،

كما "عيال عفاريت"، ولا نتنازَلُ، كما لا ينبغي للرجالِ.

الرُّجلُ الذي زوجتهُ حامِلٌ، وكانت ترمي صوتها إليهِ على أقصاه.

الرَّجُلُ الذي زوجتهُ الحامِلُ كانت تركُضُ في صعوبةٍ، ولا يلَحقُ صوتُها بِهِ.

الرَّجُلُ الذي مرَّ بِلُعبَتِنا، وركلَ الكرةَ نحونا، و لم تكن هدفًا.

لم يبتَعِد. سمِعَ الرصاصةَ، وعادَ.

والرجُلُ الذي لا يَضحَكُ، قامَ منَ اختبائِه، وهو يَهُشُّ الشمسَ عن عينيهِ.

والرصاصةُ الحمراءُ النحاسِ، الرصاصةُ العمياءُ الملتَهِبةُ، تَهتدي بالصوتِ.

والزوجةُ الحامِلُ عادَ صوتُها، متسِخًا، مِن طينِ الصباحِ النَّعسانِ، وراءَهُ رصاصةٌ عمياءُ.

الرَّجُلُ الذي زوجَتُهُ حامِلٌ، كانَ منذورًا للموتِ، ولكنَّهُ لم يمُت.

والزوجةُ التي كانت حاملاً، لم يَكُن مخاضُها، وأجاءَتها الرصاصةُ للأرضِ.

والمولودُ الذي فَوَّتَ الموتَ، يومَها، له رائحةُ بارودٍ.

تَعلَّقَت في ثيابِنا.

والماءُ لا يُزيلُها.

أحلامٌ بيضاءُ.. رطبةٌ

انطرفت عينه، فقالت عمَّتُهُ: "اقطروا له حليبا"، وقالت زوجة عمِّه: "انفخوها وخلاص". قالَ في نَفسِهِ: "لازم تحشر نفسها في كل حاجة"، وأغمضَ عينيه.

قالت أمُّهُ: "الولد عينه احمرّت"، فقالت الجدةُ: "سلمى تُرضِعُ".

عندما وضَع رأسَهُ في حِجرِها كانَ قلبهُ يدق، وقالتَ: "أغمض عينيك".

وغطَّ، ليلَتَها، في عتمةٍ بيضاءَ دافئةٍ، ورطبةٍ.

أَضَأنَا "كُلوبَّاتِ" الجَاز

لما قَالوا لي: هَات "وَقِيد" من "الخَلَا" كَانت عَمَّتي في غُرفَتهَا، أَخَذت "الطّشت" و"البستلّة"، وأقفَلَت بَابَهَا، وَجدَّتي وَضَعَت الخَميرَة عَلى العصِيدة، وأُمّي كانَت تُشَمّر أَكمَامَهَا وهِي تَصِيحُ عَلَيّ: لا تتأخر.

سَاعَدَتني زَوجَةُ عَمّي في وَضع "الشُّوال" عَلى ظَهرِ الحمَار، ولما وَقَعَ وأَنا أُحَاوِلُ الرّكُوب جَلَسَت عَلى الأَرضِ تَضحَكُ، لكِنَّني رَكِبتُ في المرَّةِ الثَّانِيَة، ورَكَلتُ بَطنَ الحمارِ بِكعبي.

قَالَت: لَو وَقَعتَ أَو وَقَع الشّوال لا تَخَف، وتَابَعَت: الحمارُ يعرِفُ السِّكّة.

لم أملكْ سوى جَرِّ الشّوال وحدي على الطَّريقِ، وأنَا أُفَكِّر أن جَدَّتي سَوفَ تَغضَبُ لما يخمرُ العيش "بزيادة"، لكنَّني لما وَصلتُ كانُوا كُلُّهُم في غُرفةِ عَمَّتي، وكانَ البابُ مكسورًا.

ولما رَميتُ الشّوال ودَخلتُ إلى الغرفةِ كانت عَمَّتِي تبتسمُ نائمةً في سَريرِها، لَكنَّهُم أَخرَجُوني بِسُرعَةٍ، وكَانت جدَّتي تَبكِي.

في الليل رُحنا للمَقبرَةِ وأَضَأنَا "كلوبَّات" الجازِ، وفي الصَّباحِ قالوا لي: هات "وقيد"، وكانَ ناسٌ كثيرون يأتون إلى بيتنا، وكنتُ أسألُ نفَسي: لماذا لم تَبِت عَمَّتي مَعَنَا، في الليلة الماضية؟.

لم تعد تستدعي الشمس إلى جلستها كل صباح

لم تكن العودة إلى النجع بعدَ رُبع قرن كاملٍ من الغيَاب وحدها سر الدهشة في الرحلةِ، ولكنَّني كنتُ أعُودُ فعلا، يُومَهَا، عَلَى ظَهرِ جَمَل. والجملُ، في الحقيقة، لم يَكن من وَسائلِ الرّكوبِ المعتادة بالنسبة لي، ليسَ لنقص في الجمالِ في أراضي العائلة التي آلت لواحد من أعمامي، ولكن لأنَّ حَظي شاءَ في الطفولة أن أمتطيَ جملًا فوقَ حمولة من أعوَاد الذرة الزلقة، وأنني عندمَا "نَخّ" الجملُ (كانوا يَقولُونَ إنّهُ سَعرَانٌ)، لم أجد ما أتمَسّكُ به لما ثَنَى قائمَيه الأماميين، فتَدَحرَجتُ سَريعًا، وأصبحَ عُنُقي في متناولِ فمِه.

يَومَهَا صَرَخَت جَدَّتِي، وهِيَ تَضرِبُ صَدرَهَا، فِيمَا انتَشَلَتنِي زَوجَةُ عَمِّي، نِعمَاتُ، قبلَ أسنانِهِ، وقَالُوا إنَّ عُمرًا جَدِيدًا انكُتِبَ لِي.

نعمات، اللهُ يرحمها، كَانَت أُمِّي الثانية، أقولُ ذلكَ كُلَّمَا تَذَكَّرتُهَا، وقَالُوا إِنَّهَا كَانت تُلقِينِي في الهَواءِ على امتدادِ ذِراعيها، كي تلقُفَني، وأنا رضيع، وأنني وقتها شئت أن أترِكَ أثرًا، على ما قالوا، أو كنتُ فزعانَ، على الأرجح، غيرَ أن الأكيد أنها أبت أن تبصقَ الماءَ الذي اندفَعَ دونَ سابقِ انذار إلى فَمِها وغطّى وجهَهَا، وقالت جَدَّتي: لم يأكل بعدُ، بولُهُ طاهر، غيرَ أنَّ أمي نَصَحَتها بالاغتسالِ، وظلَّ أبي وعمِّي يضحكان.

كانت المرَّةَ الأُولى، وكانت آخرَ مرةٍ أمتطي فيها الجملَ، على حُبِّي لِهَذَا الكائنِ الذي أرَى شبهًا قديمًا بينَهُ وبينَ الطيورِ، أظنُّهُ مِن عَصرٍ مَا قَبلَ الدِّيناصوراتِ. هُو يشبه الديناصورات أيضا، في تصوري، ولكنه لا يُشبه الجنَّ طبعا، فالجن لا "تُردفُ أعجازًا، أو تَنوءُ بكلكلٍ" كما تعرفون.

كان أبي هناكَ، في الرِّحلة، وكانت أمي معنا، غير أنني لم أرِ نعمات يومها، ولا تذكرتُ حادثةَ الجملِ السَّعران، وقتها. تذكرتها الآنَ، وأنا أسأل نفسي بعد السطر الأول: ما أهمية أنَ أتذكّر ذلكَ.

جَدَّتي "البرِنْسَةُ" كانَ اسمها زينبَ، وكانت شقراءَ بعينين خضراوين، ربت أبناءَها بحزمٍ يليق بأُمٍّ تحملت باكرًا مهام الوالدين معًا. لجمالها قالوا الأميرة، وكانوا لاَ يذكرونَ زينب، وإنما رددوا البرنسيسة، التي خففوها بعدها للبرنسة. هَكَذا وجدتُهم ينادُونَها.

ولكنَّ البرنسةَ لم تظهر هي الأخرى في رحلتي، و لم تجذبني إليها كما كانت تفعلُ في جَلسَتها المشمسَة بجوارِ الباب، ولا أخرَجَت لي بَيضَات خَبَّأتها تَحتَ فَخذهَا وقَالت لي: "خلّي أمَّك تشويها لك في الفرن"، ولا قبّلتني قبلاتِ بطعمِ الينسونِ كما كانت تفعلُ، دائمًا.

رَأيتُ أبي فقط، وأمّي، والجملَ، الذي لم يكن سعرانَ، ولكنّني كنتُ، للغرابة، مُتشَبِّثًا في رقبته، كَمَا لَو أخشَى أن أتَدَحرَجَ أمامه لَما يَنخّ، و لم تكن نعمات وقتَها لتنقذنِي من أسنانه، فقد ماتت. وأرسلوني على درَّاجَةِ أبي لِأحضرَ تَصديقَ الحكومَةَ عَلَى أنّهَا ماتت.

والبرنسةُ ماتت قبلَها بسنوات، و لم تَعُد تَستَدعِي الشمسَ إلى جلسَتها كلَّ صباح، ولا خَبَّأتِ البيضَ منْ أجلِي تحَت فخذها وهي تجلس "متربعَة" بجوار البّاب.

كنت أتشبثُ في عنقِ الجملِ، لم يكن سعرانَ، ولكنني أحسَستُ بالوَحشَة، ونعماتُ لم تَكن هُنَاكَ لتُنقذني، ولكنَّ طعمَ الينسون كانَ على فمي وأناَ أبحثُ عن طريق لفتحِ البابِ، كي أخرُجَ من هَذَا الحلمِ، أو أُخرِج الجملَ من الصورةِ.. كَونَهُ لم يَكن منطقيًا... تمامًا.

بناتٌ صَغِيرَات

البنتُ الصغيرةُ قالت: عِيبْ. لكنهما لما لعبا "عريس وعروسة" وافقت.
والبنت الكبيرة فتّانة، قالت لأختها.

والبنت الأكبر قالت: نلعب معًا.

وكان صغيرًا، صغيرا جدا... ويرتعد.

ليلة أن اصطَدنَا الثَّعلَب

جلست عمَّتُهُ تحلبُ الجاموسةَ، ووقف يشربُ من طيبةِ عينيها، وكان البردُ يَفوحُ مِن جُدرانِ البيوتِ الطينيةِ الكابية، ودخانُ الخَبيزِ المُبكر. كانَ طولُهُ فارعًا، كما تَعوَّدَت أنَ تقولَ، والفتاةُ كانت تكبُرُهُ بعامين؛ لكنه شَبَّ سَريعًا، وكَانت القريبةُ التي تُحَمِّمُهُ في الأُمسياتِ تَقرصُ ساقَهُ، في تعبيرٍ لم يكن أبدًا يَفهَمُهُ.

تحرّك في يدي، قالت لعمته ذات مرّة، وكان يسمعُ، ولمَحَ نظرةَ عمتهِ المحَذِّرة. وبدأ يستحم وحده، بعدها.

الدجاجاتُ التي تكاسَلَت في النهوضِ، اضطرّها الجوعُ إلى نبشِ

الأرضِ، هُنا وهناكَ؛ رُبَّما اختَبَأَتْ حبَّاتٌ من القمحِ تحتَ ضغطِ الحوافرِ العابرةِ، الحوافرِ ذاتِها التي دفعت الدجاجاتِ للركضِ فزعانةً، وبلا نظام، عندما صهلَ الفحلُ في اعتدادٍ، كأنَّما زفُّوا إليه الخبرَ؛ فالفرسُ البيضاءُ في طريقِها، لتَمنَحَهُ فرحًا كثيرًا، ويمنَحَها روحًا أصيلةً.

ذاعت شهرتُهُ في عموم "المُديريَّة": فاحِمٌ، وحُرٌّ، وبرِّيٌّ، ويملكُ شجرةَ نَسَبٍ، لم يطأ ظَهرَهُ أحَدٌ؛ نَذَروهُ للسلالةِ، وكانَ "أتخن شنب" في البلدِ يفخرُ بأنَّ الفحلَ قَبِلَ بِفَرَسِهِ.

لا يرضى إلا بالكمالِ، والبيضاءُ شاهقةٌ، لم يَلِق بِها اسمُ "وردةٍ"، وهيَ الملكةُ الفخورُ، كاملةُ البهاء.

لاتسرج الفرسَ قبلَ أن تحيلُ.. أوتحن. والبَيضاءُ رجَفَتْ... شَمَّها، فنَفَرَتْ مُحَذِّرَةً.. وتَبِعَها في عِنادٍ يليق. لم يقترب تمامًا.. توقَّفَ، غيرَ بعيدٍ، ودَقَّ الأرضَ بحافرٍ عابثٍ، ومطَّ عُنُقَهُ، وارتعَشَت خاصرتُهُ، وهوَ يُحدِّقُ في عينيها تمامًا، والتقت عينانِ، في نظرةٍ طويلةٍ، وثابتةٍ.

ونظرت وردةُ نحوَ الأرضِ.

في مخبأِهِمَا السريِّ شاهدَ الولدُ والبنتُ ليلاً يلِجُ النهارَ، ونهارًا يفيضُ على الليلِ.

الفتاةُ التي تجمعُ "الوقيدَ" شاهَدَت، و"الولدُ البحراويُّ" الذي يعملُ في تنقيةِ الزرعِ، بأكلةٍ ونومةٍ، شاهدَ، والتقَت عينانِ، في نظرةٍ طويلةٍ،

وثابتةٍ، أعقبتها نظرةٌ للأرضِ.

وفي البعيدِ، علا صهيلُ الفحلِ.

أخرجَ العمُّ بُندُقيّتَهُ "الخرطوشَ"، وأعلنَ أنّه لابدَّ أن يصطادَ الثعلبَ اليومَ؛ هاجمَ الدجاجَ من جديدٍ، واختطفَ واحدةً، وتركَ واحدةً، ولم تلحقها السكينُ.

داهمَ الولدَ والبنتَ شعورٌ المغامرةِ؛ كجنديينِ في مهمةٍ، مثل عمِّهما الأكبرُ، الذي كان يحكي لهُمَا عن أيامه على الجبهةِ في السويس، عندما تطوَّعَ في لجانِ الدفاع الشعبيِّ. هَا هُما يسيرانِ وراءَ عَمِّهما الآخرِ، وهوَ يحملُ بندقيةً، لقتلِ الثعلبِ العدو، والحديقةُ، في انحناءاتِها وتعاريشِها، خطُّ "بارليفَ" الذي حكوا لهما عنه.

تفرّقت القافلةُ، وحلَّ صمتُ ماقبلَ الدهشةِ، وهم يومئون لبعضهم: من يجدهُ فليخبر.

– "عيال عفاريت".

داهم صوتُ العمّةِ الولدَ وهو يُعدِّل قفطانَهُ، بينما اختبأت البنتُ خلفَ شجرةٍ وقلبُها يَدقُّ كثيرًا.

لا أعرفُ للآنَ، هل كانَ الخيالُ الطفلُ يبحثُ عن تبرير لما حَدَثَ بين الولدِ والبنت، يَومَهَا؟ أم رأى الصغيران، فعلاً، الولدَ البحراويَّ والفتاةَ التي تجمعُ "الوقيدَ"، كما ليلٍ ونهارٍ، يتوحّدانِ في السماءِ التي تنسحبُ

زُرقتُها، شيئًا فشيئًا، في الغروبِ؟.

كلُّ ما أذكُرُهُ أنَّها كانت الليلةَ، ذاتَها، التي شعرَ فيها الصغيرُ بالخيانة، عندما أسلَمَهُ عمُّهُ، يومها، لـ"حلاّقِ الصحَّة".

هل تُرى عَلِمَ؟

وكانَ عقابُهُ المؤلمَ؟.

اغتِراب

قالت الطفلةُ: "الموانى باردَةٌ، وظلالُها خَدَّاعةٌ"، وكانت في دورِ العرافَةِ.

رِسم خطًا رفيعا فوقَ فَمه، وكانَ يعرِف أن أمه ستغضَبُ، عندَما لن يزولَ الحبرُ.

خَطُّوا دائرةً، وحددوا تفاصيل بيتهم؛ هنا المائدةُ، والمطبخُ من هنا، وتلك الغرفةُ للمعيشَةِ، ونأتي بأطفال كثيرين، يداعبونني، يتسلقون ظهري مشاغباتٍ مرحة ويفتشون في جيوبي عن حلواهم، المختبئةِ.

لا تضع قلبكَ في السفينةِ، بالأعلى. اتركهُ مع الحقائبِ، في الرحلات

التي قد تطولُ قليلاً، تُعشِبُ التفاصيلُ، وتبكي، عند قطافِها، في لحظات الوصولِ.

والصغارُ أغنياتٌ، تَقطرُ ألحانُها، كعسلٍ صافٍ.

– رحلَتُكَ الأولى؟

– لماذا نرحَلُ، ما دُمنا نعودُ؟

حفلُ زفافها في البيتِ الذي رسموهُ، والزوجُ من بيتٍ آخرَ

في حجرتها، تدخلُ امرأةٌ يلفها السوادُ، وتقترب منها، وهي تمدُّ إصبعًا ملفوفةً في منديلٍ أبيضَ، نحو المثلث المعتم، وتمرُّ بكفها الأخرى على أعوادٍ من الحلفا، مفروقةٍ في اتجاهينِ.

تخرجُ، ويدُها مجروحةٌ من أثَرِ الحلْفا، والمنديلُ ملوثٌ بالدم.

دفء

لم تَكُن نَائِمةً، عِندَمَا ضَمَّهَا إلى صَدرِه، في مَسَاءٍ مُتَأَخِّر.

لم تكُن نائمةً، عِندما تحرَّكت بعضَ الشيءِ، بعدَهَا، لِيُضِيءَ شُعلَتَهَا... في البَردِ.

عشاءٌ متأخِّر.. قليلاً

عندَما حمَلَ التيارُ، الذي فاجأها في "هبَّة عصاري"، صغيرها ذي الأعوامِ الثلاثة، قالت: "يخيِّبك"، وهمست لنفسها: "سيعود".

أسقط زوجُها، الذي انتشلَ الصغيرَ قبلَ "الهويس"، صرامتَهُ الزائفةَ أمامَ عينيها الصافيتين، وكانت "تربّع" رِجليها، وقال: "بَس يا يامنة..... كان لازم.. برضه يعني".

نَظَرَت في حِجرِها، وفَرَكَت يديها في ارتباك، فأضاءَ "اللمبة الجاز نمرة 5"، وعلقها في مسمارٍ على الحائط، وأخرَجَ الخُبزَ من "الطاقة التحتانية"، وقامَ على رجليهِ، وأفلَتَ "المشنَّةَ" مسمارٍ في السقفِ، ووضَعَهَا على الأرض.

جلسَ وهو يستندُ على ركبتِها، وقال: "صَحِّي الواد، عشان ناكل".

يَومَ أَن نَفَضَت يَدَيها مِن العَجين

نَفَضَت يدَيها من العجينِ، لم تمسحهُما في ملابِسها، كما تفعلُ، في العادة، لو أرادَت تناولَ شيءٍ، من يدي، أَنا بِكرِيهَا، فاتح الرحمِ، الذي أنجبَتْه عَلَى صبرٍ، وكانت آيسَت من الخلفة.

التفَّ حبلُ الجريدِ الأخضرِ حول وسطي، وحولَ النخلة العالية، وعانَقتُها، وأنا أبدأُ خطوتي الأولى في طلوعِها.

جَرّبَت كلَّ وصفة: أفزعَها القطارُ، قالت جارَتُنا إنّها طريقةٌ مُجرّبة، ودَخَلَتْ مقبرةً في الليلِ، ولم تطاوِعها روحُها للبقاءِ حتى الصباحِ.

الصباحُ أَضاءَ رأسَ والدي، ولم يبق من ليلِه سوى القليلِ. يشيرُ لرأسه

ممازحًا: شيَّبْتَنِي، حتى جِئتَ.

نفضت يديها من الماجور، الذي اختمرَ عجينه، وكانت تشدُّ في عجِينها: العجينُ لابد أن نلحقَهُ، قبل أن ينقطعَ عِرْقُهُ..

النخلةُ العاليةُ عاليةٌ، رجلٌ وابن رجلٍ، من يطلعها

نفضَت أمي يديها، والتفتت إلى الأعلى، ودَقَّت صدرها.

تتلصّصُ، أنا والعيالُ، حين ترتجُ الثمارُ المعلّقَةُ، فقد نحظى بلحظةٍ نزهو برواياتِها في حكاياتنا السرية.

سأَحكِي لهم وأنا "نافش ريشي" كما ديك رومي، رجلٌ، وابن رجلٍ، طبعًا.

نَفَضَت يَدَيها، من "ماجور" العجينِ المختمرِ، وضربت صدرَها

الحبلُ الذّي لفّهُ أبي حولَ وسطه، حبلُ الليف، كان شائكًا، ويجرحُ كفّي، ليسَ مثل الحبلِ الرفيع الّذي جَدَلْتُهُ من الخُوصِ الأخضرِ، وجعلتُهُ مقلاعي، لصيدِ الطيور الصغيرة.

لم أُقل لهمْ أبدًا إنني لم أَذبح العصفورَ، كَمَا زَعمتُ، ولا إنني سقيتُه، وتركتُه في الحوشِ؛ ربما جاءتهُ أمُّهُ. ولا قلتُ إنه ماتَ وحدهُ بعدَها، ودفنتهُ في جنازةٍ، وبكيتُ. كانوا سيضحكونَ منّي.

لفّ وسطَهُ بحبلِ الليفِ، لا ينقطع فجأةً، كما انقطعَ مقلاعي الآن،

وأمسكت يدي بالـ"السّباطةِ"، و لم أكن "أخرف" رُطبًا، لحظتَها، كنتُ، فقط، أتشبّث.

شدّ على حبلِ الليف، وهو يركضُ، وألقى العمامةَ.

والعصفورُ الصغيرٌ، بجناحٍ أخضر.

نفضت عجينها، وضربت صدرها، وهبّت

سينقطعُ عِرقُها، هذهِ الخبزةُ.

شدّ على حبلِ الليفِ، وضَربت صدرَها.

هل سيعلمونَ أنّني لامَستُ "السّباطةَ" و"خرفتُ" الرُّطَبَ، وأنني طرتُ لأوّلِ مرّةٍ، كما حلمتُ دائمًا، وأنني رأيت في الأعلى ما سيكون فاكهة الحكايا؟

سيقولونَ بالتأكيدِ: رجلٌ وابن رجل. وأتيهُ بينهم كديك رومي.

نفضت يديها، وضربت صدرها، و لم تلحق بالعجينُ المختمر، قبل أن ينسكب في الارضِ ويسيل، ويمتزج بالطين.

سوناتا الفزع والزهو

خائبٌ أوّلُ العائدين، خائبٌ، وجبانٌ، والذي سيبقى شجاع، والشمسُ كانت تُمسكُ في أذيَالِ اليومِ، والتوتةُ كانت ترتَعشُ، وكفّي صَغيرَةٌ، وقلبي يدقُّ كثيرًا.

تشربُ، مجبورةً، من دم الميّتينَ، وعندما يحلُّ الظلامُ تَخافُ، ووحدَهُ شجاعٌ سوفَ يؤنِسُها، آخرَ الليلِ، شجاعٌ ولا يخيبُ.

بينَ بيتِنا وبينَها مقبرَةٌ، وحقلٌ، وفزعٌ كثيرٌ، وخائبٌ من يعودُ.

الشمس ألقتْ وداعًا أخيرًا، وكانَ الظلامُ يرشحُ في الحقلِ، وفي المقبرةِ

ترشحُ الأشباحُ، والتوتةُ كانت فزعانةً، وقلبي كانَ يدقُّ كثيرًا، وساقايَ ترتَخِيانِ، وخابوا جميعا.

لم أبصر كفّي. كانَ الظلامُ ثقيلاً كثوبِ القطيفة، والأشباحُ التي نهَضَت في الظلام اختفت تحت ثوبِ الظلام، وكانت تُهسهِسُ بينَ الغصونِ، وكنتُ خائفًا، ورجلاي لم تحملاني لأركضَ، وما كانَ غيرُ صوتِ بكاءٍ لطفلٍ صغيرٍ، وما كنتُ أبكي، ولا نمتُ من فزعٍ مستحيلٍ.

عندما قابلوني في الصباحِ، كانَ معي توتٌ، وحكاياتٌ مفزعةٌ عن عفاريتَ تشربُ من دماءِ الميتينَ كلَّ ليلةٍ، وزهوٌ كثير.

دَمٌ بِرائِحَةِ الكولونيا والبُنّ

أسْنَدتُ رهبَتي، وشَجَّعني أبي: "اقرأ على عمِّكَ ما تحفظ"، واعتَدَلَ العارفُ بعُلومِ القُرآنِ، وسألَني عمَّا سأتلو، وأخبرتُهُ: "سورَةَ المَسَدِ".

عَمِّي مُعَمَّمٌ، دَارِسٌ بالأزهَرِ، وبِهِ يُعَلِّمُ، وأبي جامِعِيٌّ، وأنا صغير جدًّا.

عندَ عمِّي كلبٌ للحراسة، و"حوشٌ" يصلحُ للاستخفاء في "الاستُغُمَّاية"، والفَرارِ؛ لو رآنا "الباحِثُ"؛ كارِثةُ لو أمسَكَني؛ سأظَلُّ باحِثًا، طوالَ النَّهارِ، وهم يحتَمونَ بِعَمِّي.

عَمِّي صارِمٌ، ويَحفَظُ القُرآنَ، وجاءَ بالمصحَفِ، عِندَما "نَسيتُ نَفسي"

وعانَدتهُ، وقلتُ: إن اسمُها "المَسَدَ" لا "تَبّتْ يَدَا" كما أصَرَّ؛ يَختَبِرُ حِفظي، بالتأكيد، كما أبي دائمًا يفعَلُ؟.

أبي نَحيلٌ، وعمّي بدينٌ، وزوجَتُه "تَكدُّ" شعرَها، دائمًا، بـ"فلاَّية" من خشَبٍ، وشعرُها كالـ"ليفِ"، ودائمًا تصرُخُ في وجهي، ودائمًا أفِرُّ من أمامِهَا، ولا تُحبُّها أُمّي.

شَعرُ أمّي ناعِمٌ، ولَديها "مشطٌ، كبيرٌ من "الباغَةِ" في لونِ العسَلِ.

هل كانَ لا يَعرِفُ حقًّا؟ وأبي أعطاني خمسةَ قروشٍ تامّة، وكانَ يَضحَكُ.

كلبُ عمّي لا يَعُضُّ، وعَضَّني، و"الباحثُ" طارَدَني كثيرًا، وجريتُ حافيًا من أمامِهِ. كادَ أن يُمسِكَني، وانفَلَتُّ في اللحظةِ الأخيرَةِ.

كلبُ عَمّي، الّذي لا يَعُضُّ، عَضَّني، وأخبَرتُهُم، وقالوا: "لا يَعُضُّ".

وقطعَةُ الزُّجاجِ التي شقت قدمي الصّغيرةَ كانت في "الحوش"، ولن يصَدِّقوني.

وأبي، حتمًا، سيَغضبُ، وقد "تُخاصِمُني" أمّي، لأنني لعِبتُ حافِيًا، مثل الآخَرين، والدّمُ يَدفُقُ دافِئًا، وكنتُ خائِفًا مِن عَمّي.

سكَبَ أبي زجاجةَ عِطرٍ "خمس خمساتٍ" على قَدَمي الصغيرةِ، وكَبَسَت عَمّتي البنَ في جرحِي النازفِ.

كنتُ أشعُرُ بالنُّعاسِ يَومَها، كثِيرًا، عِندما أبي حمَلَني إلى صدرِه، وكانت رائحةُ البنِّ في المكان، وبَعضٌ مِن الـ"كولونيا"، وزوجُ عَمِّي "تكدُّ" شَعرَهَا الناحِلِ، وكانَ عمِّي يَقرأُ "تَبَّت يَدا أبي لَهَبٍ، وتَبَّ"، والأَشْيَاءُ كانت تَختَفي في ظلامٍ رقيق.

كُرَةٌ جَدِيدَة

لم يكُن الحبلُ قصيرًا، وكنتُ أحرِصُ على أن يكونَ "محبوكًا"، بشدّة، حولَ قِطَعِ الإسفنج التي يحتويها كيسٌ من النايلون. كُرَتي، ويصرُّونَ عليَّ أن أحرُسَ المرمى؟ لا بأسَ، ما دامَ محمود سيلعبُ لصالحِ فريقِنا.

لمّا نمرُّ بمدرَسَةِ البناتِ، كُنَّ جميعهُنّ يشرنَ إليهِ، يبتسمنَ لنظرتهِ، و لم نكن نغار، فهو محمود.

ألبستُ الكرةَ التي اختفت بين طيات الحبلِ، "المحبوك" جدًا، جوربًا جديدًا؛ أمزّقُهُ، لترضى أمي أن آخذه، ككلِ كُرَة أصنَعُها، غريبٌ جدًا: أصنعُ الكراتِ بمهارةٍ فائقةٍ، ودائمًا يحملونني مسئوليةَ الهزيمة.

ولكنَ اليومَ بدايةُ الدورةِ الرمضانية، تراهنّا على صندوق بيبسي، ومحمود وافقَ أن يلعب لنا، يقيم على حافة النجعِ، هو بينَ النجعينِ، وليسَ لهم "ديوان".

وكل مرة نتنافس على مَن يفوز به، وكانَ لا بدّ أن أحرُسَ المرمى، ليأتي؛ أصرّ هو، وكانوا يريدونَ الكرةَ، وأن أتفرّجَ من على الخطّ.

لم أشرب، سرًا، في الوضوءِ، كما كنتُ أفعلُ من قبل، كبرتُ، ويمكن أن يحبني الله، رغم شغبي، وعدم سماعي للكلام، واليومَ سيأتي كشافُ النادي القاهريّ الكبيرِ، يبحثون عن مواهبَ في الكرةِ، والبعضُ يحلمُون.

نلعبُّ في باحةِ نجعنَا، سقطت العملة على وجه الملك، واخترناه.

وقف محمود أمامي، حرصَ على وجودي، ووعد أن يلعب في الدفاع.

الكشافُ كان في الضوءِ الكالحِ، والكرةُ كانت بينَ أقدامِ محمود، ومرمى الخصم كانَ قريبًا يربطها في قدمه بالخيط، كنا نقول، والمرمى قريب، والكشاف يركض في خطّ الملعب، الخطّ الذي حدّدناه بعصا صغيرة، وراوَغ محمودُ لاعبًا، وآخرَ؛ هائلةٌ كرَةُ الشرابِ تلكَ، كُرتِي، يسحرها محمودُ، فتتبعُهُ، والمرمى قريب، واللاعبونَ تعبرهم كرةٌ منَ الشرابِ رائعةٌ، والمرمى قريبُ جدًا.

قالوا إن الكشافَ اختارَ محمودَ يومَهَا، ولكن محمود لم يعرف، كان يمضي نحو المرمى و"اللاعبون دمى تطيشُ"، عندما انقطعَ الخيطُ الذي يربطُه بالكرة.

فهل كانَ ذنبي يومها أنه سَقَطَ؛ و لم أرَ الكرَةَ تدخلُ مرمايَ؟ هل كان ذنبي أن خسرنا صندوقَ البيبسي؟

كانَ الراديو قديمًا

الراديو القديم، قَديمٌ، وما زالَ يعملُ، لكنَّ "الحجارة الطورش" شحيحةٌ، والراديو الجديد أصغر في حجمِهِ كثيرًا، وأرقامُ المؤشّرِ فيه واضحةٌ.

لم يكن أبي ينظُرُ للمؤشر، مُطلَقًا، ولكنه كان يعرِفُ إذاعة لندن، من صوت المذيع، وكان يسمعُ صوتَ العربِ، ومونت كارلو، وكنتُ أسألُ دائمًا: كيفَ؟

وأنا، لم أرَ الموجاتِ القصيرةَ ولا الطويلةَ، ولا كنتُ أعرفُ أين تختبئُ الأصواتُ في الراديو.

الراديو القديم قديم، كانت أمي دائمًا تغطّيه، بقماشِ الكستورِ، ودائمًا

تُخبر أبي أن يشتري "حجارة طورش" في عودته، وكان دائما ينسى.

والراديو الجديد صوته واضح، وصغير، وشكلُهُ حلو، وأبي ينسى "الحجارة".

لما فَتَحتُ آخر علبة صغيرة في بطن الراديو القديم، وأخرجتُ منها شرائح من مَعدَن رقيقةَ جدًّا، لم أكن عرفتُ، بعدُ، أينَ تعيشُ الأصواتُ في داخِلِهُ، ولا وجدتُ غُرفَ ملابِسِها.

ولكنني كنتُ أعرفُ، وقتها، أن الراديو لن يَعودَ كما كان، وأن قلبي كانَ يدقُّ كثيرًا، وأنا أنتظرُ أن يعودَ أبي.

مُطَارَدة

لم انته من رصّ "الشقفات" السبع بعدُ، وما كانَ ضاربُ الكرةِ ليُمهِلني، رَصَصتُ ثلاثًا، وركضْتُ مُراوِغًا، كنتُ الوحيدَ الذي لم تلمسهُ الكُرةُ بعد، ولم أخرج من اللعبة، وكان الضاربُ يركضُ في سرعةٍ فائقة، وفريقُنا كلُّه ينظُرُ نحويَ، في أملٍ مستَحيلٍ.

سأصيبهُ هذه المرّة، لو أخطأتهُ سينتهي من رَصِّ "الشقفاتِ" قبلَ أن أستعيدَ الكرةَ، ولو فعلَ سيضيعُ جهدُ الفريقِ كاملاً، ويفوزون، لن أسمح بذلكَ، سوفَ أنالهُ الآنَ، سأقتنصهُ في انعطافةٍ مراوغةٍ، وهو يوقِنُ أنّه سوفَ يُفلِتُ.

أعرِفُهُ جيدًا، فهو شقيقي؛ سينتَظِرُ انعطَافيَ، كي يطلقَ ضربتَه. يحسنُ التصويبَ عادةً، كقناصٍ، ولا يخطِئُ الهدفَ. ولكنَّهُ ليسَ أمهَرَ منِّي، لتصيبَني رميَتُهُ.

الشقفات الثلاثُ مرصوصةٌ، وجوارها شقفاتٌ أربعُ، ساكنةٌ، تنتظرُ كفًّا صغيرَةً ترصُّها، والفريقانِ عاجزانِ عن المساعَدَةِ، والكرةُ تهفو إلى الضربةِ القادمةِ.

كانت رائحة شرٍّ في الهواء المذعورِ

"رأينا ما هو أسوأ". حرَّكَ الفحمَ في "القروانة" القديمة، ووضع "الكنكة" في جانبِ منها: "أرص لَكَ حجرًا ثانيًا؟"، قال للسبعينيِّ الذي يرتعد من البرد، وعدّلَ له التلفيحةَ على كتفيه. "بردٌ، أليس كذلك؟"، قال وهو يقرب "المنقد" من الشيخ الهرم: "يومها كانَ الحرُّ شديدًا، والسماءُ تصبُّ سخونةً، والشمسُ تجلدُ الإسفلتَ، وبدت بقعٌ من الماءِ على امتداده، وعرفتُ أنه السراب، وكانت رائحة شرٍّ في الهواء المذعورِ، ووقفتَ أنت في نَهرِ الشارِع، ببندقيتكَ الآليّة، توقفُ السياراتِ، وتتفحصُ الوجوهَ، قبل أن تشيرَ إلى السائقِ بالذهابِ".

"قتلوا عبادي".. كان كلَّ ما سمعتُهُ في الصباحِ، ولكنني لم أعرفِ الحكايةَ، وفي المدرسةِ نسيت أن أسألَ العيالِ.

عبادي كان في الجيش، ولما قالوا له إنهم لن يأخذوا بثأرهم لأخيه، أصابته حمى، ولما أبوه انقَتَلَ بالغَدر، طلَبَ إجازةً ليدفنِه، و لم يرجع للكتيبةِ. قال إنه لن يقبل العزاء إلا بمائة، وظنه الناس يبالغ.

"كم ملعقة؟"، قلَّبَ الشايَ وأعطى الكوب للسبعيني، وأشعلَ الأخيرُ سيجارةً "سوبر"، بيدين ترتعشان. "أعدل لك الغطاء؟". صب الشاي في كوبه، وأخذ "يخضخض" الكنكةَ قبل أن يضعَها في "المنقد" ثانيةً

البلد على أول الطريق السريعة، عند نقطة المرور، ولما غاب عبادي جاء عساكر ليسألوا عنه، شرطة عسكرية، لكن لما انقتل ستةُ أشخاص في ليلة واحدة جاءت عربات الداخلية، وكنا نقفل البيوت من "المغاربِ"، وعبادي لمْ يكن يبيت غير في القصب. ولما قتل المائة تلقى العزاء في أبيه، وسلَّم نفسه؟

يومها، نبهك صوت الفرملة الزاعق، فأسرعَت ببندقيتك الآليةِ، وأخرجتَ الركابَ المذعورين، و لم يبق سوى رجل صغيرِ الحجم يحتمي في مساند البيجو الـ"سبعة راكب"، ويصرخ: لم أقتله".

عندما صدر الحكم ببراءة عبادي لعدم ثبوت الأدلةِ كانت ثلاث سيارات تنتظره، سيارة عسكرية لتقبض عليه، وسيارة إخوته وزوجته الحامل، وسيارةُ القاتلين.

"كان ما تركتَه وراءَك جثةً، دفنوها، وبندقيَةً آليةً صادروها، وصورَةً لعبادي في زي العساكر، وهرَبتَ، ولم يَرَكَ أحدٌ من يومها". انتهى من رصِّ حجرِ المعسِّلِ الجديد، وأخذَ الكوبَ من السبعينيِّ الذي خفت رعدته كثيرا، فمسَحَ يديه في قماشة قديمة، وتناول مغلفا صغيرًا، وأخرَجَ صورة: "ها هي.. كنتُ أعرِفُ أنني سألتقيكَ ذات يوم".

عندما مالت رأسُ السبعيني للوراء، وعلا صوتُ تنَفُّسه؛ عدَّلَ الغطاء على جسمه المتَهَدِّم، ودسَّ الصورةَ القديمةَ في ثيابه، وذهب.

قالَ: مِن المُهِمّ ألا تستحمّ..

في الصَّباحِ

ينتَظِرُ القِطار

لم يَجد سوى شيخ طاعنٍ على المحطّةِ الصغيرةِ، سأله: "متى يأتي القطارُ؟".

"سيأتي"، قالَ، وهو يدسُّ يدهُ المعروقةَ في جيب داخلي تحت جلبابِه، ويخرجُ كيسًا من القماشِ، فتحَهُ ببطءٍ مرتجفٍ، وأخرَجَ كيسين من النايلون، أحدهما معتم، وفي الآخر مادةً بيضاء، فتح الأول وأخرج قبضة من "المضغةِ" الجاهِزَةِ، ووضعها في فمه.

تمنّى لو اضطرَ لأن يفتحَ الكيسَ الثاني، ولكنه كان خلط المضغةَ كلها بالـ"عطرون"، كما تعود أن يفعل، بعد أن زاد ارتعاشُ يَده.

"سيأتي"، قالَ دونَ أن يلتفت للشاب الذي لم يجلس بعدُ، ومالَ للأمامِ قليلاً، وبصق

وضع الكيسين في الكيس القماشي، وأغلقه، وأخذ يطويه إلى ثنياتٍ كثيرةٍ، وفي اهتمامٍ شديد.

بِملابس فرحَانة

تأخَّر أخوهُ الأصغرُ في الحمامِ، عادة جديدة بدأت منذُ فترةٍ.

"كلَّ يومٍ؟": هَمَهَمَ، وهو يضعُ الغلايةَ فوق "عين البوتاجاز".

لاتنسها على النار، قَطَعَ صوتُ والدَته الطريقَ إليه، ولم يُضِف كلمةَ "كعادَتكَ" هذه المرَّةِ.

فكَّر في العادات الخفيَّة: قد يطولُ الحمامُ بسببها، عرَفتها في سنٍّ أصغرَ، ولم أقرِّر اسمها، كانَ اكتشافًا فرديًّا يَومَهَا، "سأكلِّمُهُ، لا يعرفُ الفداحاتِ"، قالَ وهوَ يضبطُ النارَ على أقصى انخفاضٍ، ويتحدثُ في هاتفهِ؛ يخبرونَهُ عن موعدِ البروفَةِ، هي مسرحيَّتُهُ الأولى كمخرجٍ مُساعدٍ،

وكانَ دائمًا يبحثُ عن فرصةٍ.

عندَما أجابَ البابَ كانَ خمسينيٌّ يواجِهُهُ بنَظرَة طيِّبة، ردَّ بنظرةٍ متسائلة. وسألهُ الزائرُ عن الوالد، ولما أخبرَهُ أن والِدَهُ ماتَ منذُ عامينِ، كادَ يسقُطَ، فأسَنَّدهُ إلى كنَبَةِ الصالونِ، وسارع لإحضار ماء بارد، وبَقيَّةِ عطرٍ على سبيل الاحتياطِ.

عندما تلقى العزاء مجددًا، وهو يودع الرجل، غمغم بالرَّدِّ في آلية، وهو مشغولٌ بملابِسه الفرحانة، والصالونِ الذي جددوا تنجيدَهُ، والعاداتِ الخفيّة، وموعِدِ المسرحية..

أغلقَ البابَ، وبدأَ يبحثُ عن رائحةِ أبيه.

بِضعُ دَمعاتٍ وبقعةُ دم

قالَ الأبُ: سآخذه لموقف السرفيس غدًا، كلَّمتُ "الأسطى" لأجلِه، وقالت الأمُّ: ما زالَ صغيرًا.

الأسطى ضخمٌ، بشاربٍ كثيف، وذقنٍ غير حليقة، وكفٍّ خشنة.، وأمرَهُ أن يغسل السيَّارةَ، وقالَ للأبِّ: سأجَرِّبه، وقد ينفع، ومنحه عشرة جنيهات.

"يلمُّ" الأجرةَ من الركابِ، ويعطيها للسائقِ، وأبوه وعده بآيس كريم، لأول يوم عمل.

كانت عصافيرُ النومُ تغني في سعادةٍ، وتسبحُ فِي بحيراتٍ من الآيِس

كريم، وكانت لأنفاسِ السائقِ رائحةٌ.

منحه 20 جنيهًا، وقالَ: لا تُخبِر والدك.

قالَ أبوه: سأضعُها في دفتر توفيرك، ونامَ، واستعارت أمُّهُ دموعَها لتزيلَ بقعةً من دمٍ وقذارةٍ عن ثيابه، في صمتٍ، وهو كانَ ينتَظِرُ وعدَ أبيه.

قالَ للسائق: سأسلمك الأجرة آخر الخطِّ، فأومأ بالموافقةِ.

قال السائقُ: سيسرقني، ولا بأس.

قالَ لنفسه: سأشتري الآيس كريم من "حُرِّ مالي".

قالَ: مِن المُهِمّ ألا تستحمَّ.. في الصَّباحِ

قالَ: تعرفُ لماذا يغتسلُ الإنسانُ من الجنابةِ؟

قلتُ: لتنشيطِ الدَّورةِ الدَّمَويَّةَ، عَلَى الأَرجَح.

قالَ: أَنتَ لا تعرفُ... وانتظرَ انتباهيَ، ثم تابَعَ: أساسًا، الواحدُ وهوَ يَعمَلُ ذلَكَ الشيءَ ينفصلُ عن الدنيا، عن كل شيءٍ، أَلَيسَ في فعلِه في الحلالِ أجرٌ؟

أومأتُ بـ"نَعَم"، فَقالَ: ولكنَّهُ يفصلك حتى عن الدين.

استراحَ في المقعدِ، وتابَعَ: لِذَا وَجَبَت الطَّهَارَةَ بعدَها، ليعود إلى الدين من جديد.

قلت: على ذلك فالنساء يكفرننا في كل يوم، فضحك وقال: ليس كل يوم، وتلفت وهو يتساءل: طبعا؟.

أحمد، الذي انتهى من تنصيب برنامج خرائط جوجل على اللاب توب الجديد، ضحك: ربما ليس كل يوم في سنِّك.. نحن مازلنا بخير.

وضع سعيد مبسمَ الشيشة في الصينية، وقال، مبتسمًا: دائما تضع نفسك في مآزق.

تابَعَ الحاج محمود، مدافعًا عن نفسه: لستُ أمزح، فعلا، هل تعرفون مثلا انه من آداب الإسلام أنك لو اضطررت للمبيت عند صديق لك متزوج ألا تغتسل صباحا، حتى ولو احتلمت، حتى لا يظن أنه نام عميقًا، ويشك في أشياء حدثت مع زوجته.

اتسعت ابتسامتي، وسألتُ: وما يدفعه للمبيت عند شخص بهذا السفه، البلد صاحية للصباح، والفنادق كثيرة؟.

قال سعيد: أو يبيت في المقهى.

أغلق أحمد الجهاز... وقال: طائرة حربية أخذتهم من المطار؟.

قال سعيد: غيروا القاضي، ليقبل بسداد الكفالة.

قال المهندس علي، وكان منشغلا في رص الحجر الجديد: الفياجرا جعلته ممكنا كل يوم.

قلت: لكن مسألة الخروج من الدين تلك؟.

ضحك سعيد: أبو حنيفة قال: ما ينقضش.

قال أحمد: ينقض أو لا ينقض.. المسألة أصبحت علانية.

قال الحاج محمود: ولو دعاكَ، في الصباح إلى الصلاة، مثلا، يمكنك ان تكتفي بالوضوء.. وصلها مرة أخرى في البيت.

ابتسم سعيد: الستات، طبعا، مستريحات في هذه الحالة.

قال المهندس علي: خرجت معهم سيارات تأمين أمريكية، وكنا مختلفين على السيادة.

ضحك أحمد: المهم ألا تستحم في الصباح.. عيب.

انشغل الحاج محمود في تغيير "الطاسة".. وكان سعيد يضحك وهو يسأل أحمد: كل يوم؟.

يُذَكِّرُ نَفسهُ دَائمًا بشراءِ الخبزِ

ابتَسَمَت، فأضاءَ صباحُ أيامِه.

ولم تُغمِض عينيها، فقال: سأنقل المحاضرة.

وعندما انسكب شعرُها، كمساءٍ خجلان، اشترى دبلتين.

تفتحت أزهارُها في كفِّه، فانتعش.

ولما غادَرَ الصغيرُ إلى بيتِه الجديد،

تذكَّرا؛ كل هذا الوقت!

عندما سافرَت، وحدها، خبأ أسنانه في ثيابِها، فقد تحتاجُها، لأجل أن ترى الملائكة ضحكتَها، وتحِبَّها، مثلما يفعلُ، كلٌّ من يراها.

يبللُ الخبزَ من يومِها، ويذكِّرُ نفسهُ أن يحضرَ خبزًا طريًا في طريق عوْدته

أطفأ شمعةً في عيدِ مولِدِها، منذُ أيامٍ.

وأراحَ رأسَهُ قليلاً.

ومات.

أسامة جاد

شاعر وسارد وصحفي.
عمل في الأقسام الثقافية وأقسام الديسك المركزي في صحف: "الشبيبة"– مسقط، و"صوت الأمة" – القاهرة، "البديل" – القاهرة، مجلة "شاشتي"– القاهرة، ويراسل جريدة الخليج – الشارقة.

صدر له ديوان "الجميلة سوف تأتي" في نهايات 2012.
أشرف على مراجعة ترجمة ديوان الشاعر الكوري الكبير كيم سو وول "زهور الأزاليا".
فازت مجموعته القصصية "أحلام بيضاء رطبة" بجائزة كتاب الجمهورية في 2011.

كاتب سيناريو ومعد برامج تليفزيونية: كتب سيناريو وحوار مسلسل "رحلة المندوس" لتليفزيون سلطنة عمان، وبرنامج "نادي السينما" للتليفزيون ذاته.
عضو نشط في عدد من الجمعيات الأهلية العاملة في مجالات رعاية وتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة.

له تحت الطبع:
"صباحًا.. ذات مساء" – ديوان شعر
ترجمة لرواية "أسنان بيضاء"، للكاتبة البريطانية زادي سميث.. عن سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
"صُور العَفيَّة.. أول مدينة عربية تشرق عليها الشمس" – سيرة مدينة.